

رفض التحولات القبلية في شعر صدر الإسلام

أفراح موفق

أ.م.د. حسن صالح

جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية / قسم اللغة العربية

(قدم للنشر في ٢٠١٨/٤/١٨ ، قبل للنشر في ٢٠١٨/٦/١)

ملخص البحث:

إن قارئ الأبيات التي تناولت القبيلة في العصر القديم، يجد أنها تحدثت عن القبيلة بوصفها وحدة فيزيائية متماسكة لها سنن تصل حد القداسة عند أفرادها، وما إن جاء الإسلام حتى تصدع هذا التماسك؛ إذ تخلت أغلب القبائل التي اعتنقت الإسلام عن كثيراً من عاداتها التي لا تتوافق مع المنطلقات الإسلامية، ولكن هذا التخلي جوبه برفض من قبل قسم من شعراء ذلك العصر، ونحاول في هذه المقاربة الكشف عن مظاهر الرفض عند أولئك الشعراء .
وقد قامت خطة البحث على توطئة تحدثنا فيها عن مفهوم الرفض وأسبابه والمعززات التي أبرزته ، ثم اعقبنا التوطئة بالحديث عن مظاهر الرفض عند أولئك الشعراء وكيف عبروا عن رفضهم في منجزهم الشعري، وأنهيها البحث بجائزته تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها، اعقبنا الخاتمة بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدها في مقاربتنا هذه .

Refusal of Tribal Transformations in the Poetry of Early Period of Islam

Abstract:

The reader of the poetic verses that tackle the tribe in the pre- Islamic paganism finds that they describe the tribe as a coherent physical unit which has its own convention that may considered inviolable by the members. As soon as Islam appeared the coherence of the tribe has been demanded when most tribes, that embraced Islam abandoned their customs that are not in harmony with Islamic principles. This has been rejected by some of the poets of that era.

This study tries to detect the aspects of this refusal by those poets. The study consists of an introduction which deals with the concept of refusal its reasons and factors that brought it into view at that time The introduction is followed by a review of the aspects of the refusal and how the poets expressed their refusal the poems. The study ended with a conclusion which comprises the most important finding that have been reached and followed with a bibliography which contains the references that have been consulted in this study.

توطئة:

الفكرية يتمثل موقف القبيلة في التحلي عن افرادها المرتدين حين
أبت حمايتهم ورفضت نصرتهم وايواءهم وقطعت أواصر الروابط
بينها وبينهم، مما جعلهم في وضع نفسي مهين للاغتراب وصولاً
لرفض هذا التحول الناتج عن احساسهم بالضياع "والقلق والعجز
بعد الشعور الذي كان يحسُّه في اتمائه إلى الجماعة"^(٥).

وقد عبر الشعراء عن رفضهم للانتقالات القبلية،
فحولت كل المؤثرات الخارجية وما يحيط بالشعراء والايام التي
يعيشونها على هذه الأرض إلى تجارب شعرية يعبرون عنها تعبيراً
ينسجم وطبيعة نظرتهم للحياة ومزاجهم، فكل شيء حولهم رمز
يثير حالة شعورية معينة^(٦)، يحسها الشاعر ويتأثر بها .

إن التغيير الذي طرأ على الجزيرة العربية بظهور الإسلام
ومن ثم انتشاره ودخول العرب في الدين الجديد، جعل كعباً يقف
موقف التنازع والحيرة وهو الذي عرف بعصبية الشديدة وعناده
وحياته القلقة البيئية والقبلية، وعدائه الشديد للرسول محمد (ﷺ)
والإسلام، فما أن أستتب الأمر للمسلمين وأهدر دمه مع من أهدر
من دماء الشعراء المناهضين للإسلام، حتى كان عليه أن يقرر
ويبدو أن حب الحياة لديه أقوى من العصبية القبلية فما أن جاءه
كتاب يجير حتى أسرع إلى المدينة لإعلان إسلامه أمام الرسول محمد
(ﷺ) طالباً العفو والأمان، وفي هذا الجو النفسي القلق ولدت

تجلى نزعة الرفض بوصفها حالة انسانية ملازمة للوجود
الانساني غير مقترنة بزمان أو مكان وتواجد بدرجات متفاوتة،
حيث تنشظى شذراتها في المواجهة والمعارضة والتحدي والإدارة
بما تتطلبه "مقاومة الإرادة لدافع معين، أو على رفضها التصديق
بالأمر، أو تأييده والانقياد له، والرفض بهذا المعنى يوجب اتصاف
صاحبه بقوة فقدانها وقوله (لا) عند رفض الشيء أدل على قوة
إرادته من قوله نعم، شريطة أن لا يكون رفضه ناشئاً عن دوافع
غريزية عمياء"^(١).

إن الإسلام على الرغم من كونه ثورة دينية واجتماعية،
أحدث في حياة العرب الكثير من التغييرات الجوهرية؛ إلا أنه لم يهدم
كل ما توارثوه عن اسلافهم من قيم ومثل، فأرسى بذلك القواعد
الاجتماعية^(٢)، لتعزيز ثقة الفرد بحقيقة اتمائه القبلي، لأن الفرد في
تلك البيئة لا يستطيع أن يعيش منفرداً ومنعزلاً عن المجتمع، لهذا
السبب نظر إلى القبيلة؛ نظرة قداسة وظل حريصاً على التوحد
معا^(٣)، فالذات لا يمكن ان تحس بوجودها إلا من خلال احساسها
بوجود الاخرين لهذا يصبح التزام الشاعر بالجماعة التزاماً بوجودها
واهدافها وتطلعاتها^(٤). ومع هذا فلقد تضافرت العوامل الدينية
والاجتماعية في تغريب بعض الشعراء عن قبائلهم، فمن الوجهة

قصيدة (بانة سعاد) بأجزائها الثلاثة المتفاعلة والمتكاملة لخلق

اللوحه الكامله لكعب يعرضها أمام الرسول^(٧)، قائلاً^(٨):

متيمٌ إثرها لم يُجز مكبولُ
إلا أغنُ غضيضُ الطرف مكحولُ
كأنه مُنهَلُّ بالزَّاح معلولُ
صافٍ بأبطح أضحى وهو مشمولُ
من صوب سارية بيضُ يعاليلُ
ما وعدتُ أولو أنَّ النَّصحَ مقبولُ
فجعَّ وولعَّ وإحلافٌ وتبديلُ
كما تلوونُ في أثوابها الغولُ
إلا كما تُمسكُ الماءَ الغرابيلُ
وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ
وما لهنَّ طوالَ الدهرِ تعجيلُ
إن الأمانى والأحلام تضلُّ ليلُ

بانة^(٩) سعاد فقلبي اليوم متبولُ
وما سعادُ غداة البين إذ رحلوا
تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمتُ
شُجتُ بذى شبيبٍ من ماءٍ محنيةٍ
تجلو الرياحُ القذى عنه وأفرطه
يا ويحها خلةً لو أنها صدقتُ
لكنها خلةٌ قد سيط من دهما
فما تدومُ على حالٍ تكونُ بها
وما تمسكُ بالوصلِ الذي زعمتُ
كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلاً
أرجو وأملُ أن يعجلن في أبدٍ
فلا يفرك ما منت وما وعدتُ

خلال الفعل الماضي (بان) وظرف الزمان (اليوم) وبما يشكله البحث عن سعاد من بعد مستقبلي، وبالامتداد المكاني الذي يتشكل من خلال الظرف (أثرها) وبذلك نكون إزاء زمكانية، تتبعها صورة أخرى تتمثل في الثنائية المتقابلة التي أقامها الشاعر ذاته (قلبي/أنا) ورمزه (سعاد/هي) فإذا كانت سعاد قد (بانة)

يبدأ النص بمشهد تصويري من خلال حركة البينونة التي تشكل مقترناً نفسياً للولوج إلى دلالة الرمز؛ فالفعل (بان) يرسم لنا صورة مرئية لامتداد الرمز (سعاد) في آفاق بعيدة، هذه الصورة من شأنها أن تضعنا أمام فضاء مفتوح بامتداده الزماني، الماضي/الحاضر/المستقبل مستعينا في تحقيق هذه الزمانية من

أ.م.د. حسن صالح و افراح موفق: رفض التحولات القبلية في . . .

إن النص كله يجري في جو موحش يضيق به المتلقي
ويشارك الشاعر في هذه المأساة التي يعيشها ولن يخدعنا في هذا
المناخ الموحش الحديث عن سعاد فهو لا يقابلنا بها سعيدة ريانة
بالحب، ولكنه يقابلنا بها (بائنة) فمن رسم ملامحها نحس أنها
ليست إنسانة معشوقة وما كان له أن يعرض بامرأة أمام النبي (ﷺ)،
وإنما هي القبيلة أو عبارة أخرى ديانة الشاعر السابقة التي لا يزال
مرتبطاً بها نفسياً، فمن التعسف أن تقرر أن الشاعر قد أخلص
تماماً للإسلام، فهو من جهة لم يكن قد تعرف على الإسلام تمام
التعرف، ومن جهة أخرى فالإنسان -أي إنسان- لا يمكنه عاطفياً
أن يتخلص تمام التخلص من ماضيه ومن مقدساته القديمة ثم إننا
نحس أنه بعد أن تغزل بسعاد رجع إلى معاتبته ابتداءً من البيت
السادس:

وفارقت الشاعر فإن قلبه ظل (متبولاً/متيماً/مكبولاً/مقيداً . . الخ)
وبقدر ما تحقق (البينونة) الحربة المطلقة أو الامتداد بالنسبة لـ
(سعاد) بقدر ما تكبل هذه البينونة ذات الشاعر فيبقى حبيس
المكان والزمان، إن هذا المشهد الذي شكله الفعل (بان) في البيت
من النص قد تمحض عنه عمق دلالي سلط الضوء على مجمل
الرموز الواردة فيه ، فإن رموزه التي اعتمدها كانت وسيلة ترجمة
معاناة الشاعر في صورة أبرزت العالم الداخلي وما يعتريه من توتر
نفسي تعانیه الذات، وما ينطوي عليه هذا التوتر من صور
تسدعي توظيف رموز تكون قابلة لتفريغ شحناته الذاتية وتكون
قادرة على احتواء الأزمة وهذا ما نجده في اختيار الشاعر
(سعاد) رمزاً يفرغ فيه شحناته النفسية التي تحملها ذاته الهاربة من
واقع^(١٠) غربته وعزله عن القبيلة.

ما وعدت أولو أن النصح مقبول

اعتماداً على المثل القديم الذي صيغته (أخلف من عرقوب) وهو
يضرب لشدة اختلاف الوعد بعد طول المثل^(١١).
ومن ثم يسترسل الشاعر في ذكر أوصاف ناقته التي
أضفى عليها معاني الصلابة والشدة، فيقول^(١٢):

يا ومجها حلة لو أنها صدقت

إنها راوغته وأخلفت مواعيدها معه وعمدت على أذاه
بفعلها، وكما شبهها في التلون بالغول، والغول من السعالى وهي إناث
الشياطين في زعم العرب، فإنه جعل مواعيد عرقوب لها مثلاً

أمست سُعادُ بأرضٍ لا يبلغها
 ولن يبلغها إلا عُذافرةٌ
 من كلِّ نضاحةٍ الذفرى إذا عرقتُ
 ترمى الغيوبُ بعيني مُفردٍ لهُقٍ
 ضخمٌ مُقلدها فعمُّ مُقيدها
 حرفٌ أخوها أبوها من مهجنةٍ
 يمشي القُرادُ عليها ثم يُزلقه
 عَيْرانةٌ قُذفتُ في اللحم عن عُرضٍ
 كأن مافات عينيهما ومذبحها
 تُمرُّ مثل عسيب النخل ذا حُصلٍ
 قنواءٌ في حُرثيها للبصير بها
 تخدى على يسراتٍ وهي لاحقةٌ
 سُمُرُ العُجايات يتركن الحصى زلماً
 يوماً يظلُّ به الحرباءُ مصطخماً
 كأن أوبَ ذراعيهما وقد عرقت
 وقال للقومِ حاديهم وقد جعلتُ
 شدَّ النهار ذراعاً عيطلٍ نصفٍ
 نواحةٌ رخوةٌ الضبعين ليس لها
 تقرى اللبان بكفيها ومدرعها
 إلا العِناقُ التَّجيباتُ المراسيلُ
 فيها على الأبنِ إرقالٌ وتبغيلُ
 عُرضتها طامسُ الأعلام مجهُولُ
 إذا توقدت الحُرَّانُ والمييلُ
 في خلقها عن بنات الفحل تفضيلُ
 وعمُّها خالها قوداءُ شمليلُ
 منها لبانٌ وأقربُ زهاليلُ
 مرفقها عن بنات الزَّورِ مفتولُ
 من خطمها في اللحين برطيلُ
 في غارزٍ لم تخونهُ الأحاليلُ
 عتقٌ مبيِّنٌ وفي الخدين تسهيلُ
 ذوابلٌ وقمهن الأرض تحليلُ
 لم يقهن رعوس الأكم تنعيلُ
 كأن ضاحيه بالنار مملولُ
 وقد تُلْفَعُ بالقور العساقيلُ
 ورقُ الجنادب يركضن الحصى قيلوا
 قامت فجاوبها نُكدٌ مئاكيلُ
 لما نعى بكرها الناعون معقولُ
 مشققٌ عن تراقبيها رعابيلُ

المعلم، وبين هذه الصورة وتلك يتسلل تشبيه ناقته بثور وحش لكنه لا ينجح إلى سرد قصة ثور الوحش التقليدية، وهذا متأثراً من عناية الشاعر بتفاصيل ناقته نفسها، مكثفياً بالمدلول العام لاستحضار صورته عن طريق تشبيه الناقة به وما يؤديه ذلك المدلول من التهيئة لأجواء الصراع الفردي الذي يخوضه الثور، لكن الشاعر لا يستغرق كثيراً في تفاصيل قصة الثور، فقد فتح صورة الناقة لمشهدا مشهدا الغني بمدلولات اليأس والخوف من إهدار دمه^(١٣)، إن حركة هذه الجزئيات الموجودة في داخل النص تعكس الوضع النفسي المتقلب للشاعر، بين طمعه بالعفو وخشيته من العقاب، وإن وقوف الشاعر عند وصف محاسن الناقة واستغراقه يدل على إنها عالم بديل عن سعاد/ القبيلة، فإذا كانت سعاد قد خذلته وتكررت له فالناقة قد رافقته في رحلته الطويلة النفسية والمادية، فإن فقد سعاد/ القبيلة السبب الأساس في هذا الوقوف المتأثري من الناقة المحبة المتحركة والمتلاحمة مع قائدها كعب.

تلعب الناقة دوراً مهماً في حياته القلقة المضطربة التي كثرت فيها الأسفار وسادها الانتقال من مكان إلى آخر، فهو لا يستطيع الوصول إلى سعاد/ القبيلة التي أضحت بعيدة كل البعد يعسر الوصول إليها إلا على ظهر ناقة شديدة غليظة سريعة خفيفة

صورة الناقة تابعت التفاصيل الدقيقة للأحداث ولكنها لم تتجاوز المتابعة إلى ما وراء الأحداث من بواعث وانفعالات نفسي، لقد تمخض هذا التمزق عن إحساس غامر بالجرح بعد أن خلفت في القلب جرحاً لا يندمل، وحين تصبح كل خلجات الأمس الراحل محض ذكريات وتعدو سعاد - رمز الاطمئنان المفقود - تنبثق لوحة الرحلة التي تبقى قادرة على أن تستوعب المعطى الموضوعي للقصيدة التي تمهد لمضمونها، ولهذا فإنها في برودة كعب تعدو رحيلاً من عالم الخوف وترقب الموت إلى عالم الطمأنينة الذي لم يعد شيئاً قادراً على أن يوفره له إلا الدخول تحت خيمة الإسلام.

ولأن الناقة - رمز الصبر والأناة - هي أداة الشاعر ووسيلته في رحلته إلى عالم الحلم الشاخص في قصيدته، فإن كعباً أدرك أن ناقة تنقله من عالم الشرك والمكابرة في الباطل إلى عالم الإيمان ينبغي أن تكون قوية موثقة الخلق قادرة على أن تقطع الشوط دون كلال ودون أن يثنيها عن عزمها حر الصحراء اللاهب ولا طول الشوط ولهذا أمتد النفس في محاولة تصوير هذه القدرة الحارقة ومنحها امتداد النفس هذا فرصة استجلاء تفاصيل هذه القدرة، عمد الشاعر أن يدقق في وصف هيكلية ناقته وأعضاء جسمها فلا ينسى العرق الذي ينضح من جسمها والطريق المجهول

وهذه مؤشرات توحى بمدى تماسك الشاعر قبيلته التي انفصلت عنه، وأحس بمرارة هذا الانفصال بحيث تزايد حدة القلق والتوتر في دواخله حين يتراءى له وجود مسافة فاصلة بعيدة المدى تفصله عن قبيلته بقوله^(١٥):

إلا العتاق النجيبات المراسيلُ

الشعري، فهو يتمرّد على واقعِهِ فيعبر عن سخطِهِ وثورته^(١٧) لما طرأ في الواقع من تغييرات وتحولات على صعيد اتمائه القبلي والانسلاخ منه.

عانى متمم بن نويرة معاناة كعب بن زهير حين أحس بحدوث هوة بينه وبين قبيلته، أثر تخليها عن سننها المتعارف عليها في حماية أبنائها ومناصرتهم إذا ما أصابهم حيف أو ظلم والدفاع عنهم، قائلاً^(١٨):

حبلى الخلي وللامانة فنجعُ
يوم الرحيل مدمعها المستقعُ
قد استبدُ بوصل من هواقطعُ
وأخو الصريمة في الأمور المزمعُ
فدنُّ تطيفُ به النبيطُ مرفعُ

الحركة لا تعرف معنى للوهن ذات همة عالية، قد جربت الأسفار الطويلة تستطيع بلوغ الأماكن البعيدة التي لا يستطيع غيرها من النوق الوصول إليها^(١٤).

أمت سعاد بأرض لا يبلغها

تمظهر نزعة الرفض بأسلوب يحائي مبطن في الدلالات اللفظية والصورة الفنية التي توحى برفض الشاعر لتلك التحولات التي أحدثت بينه وبين قبيلته هوة وبون شاسع لا يستطيع الانفكاك منه، ولاسيما أن كعب بن زهير عرف بشدة عصبية وولائه لقبيلته؛ لذلك لم تكن تلك الأحداث والتحولات بالأمر اليسير بالنسبة له فقد كان "تعبير الشاعر عن قبيلته أكثر من تعبيره عن نفسه"^(١٦). إذ تتسلل الحياة القبلية الماضوية في أعماق نصه

صرمتُ زنيبةُ حبلى من لا يقطعُ
ولقد حرصتُ على قليل ماعها
جذي حبالك يا زينب فإني
ولقد قطعتُ الصرم يوم خلاجه
بمجدةٍ عنس كأن سرراتها

أ.م.د. حسن صالح و افراح موفق: رفض التحولات القبلية في . . .

حين اتخذ من الرمز (زنبقة) معادلاً موضوعياً للقبيلة، وكأنه يصور لنا علاقة عاطفية تددت بانصرام حبال الوصل والقطيعة بينه وبين محبوبته في ظل علاقة متوازنة .

يستحضر الشاعر أدواته الفنية وسرحات خيالاته ليجعل من كلاهما قولاً شعرياً من خلال استحضاره للفعل الماضي في قوله: (صرمت/حرصت/قطعت) إن صياغة الأفعال تترجم في النص أحاسيسه وانفعالاته وتجسد أحواله المعبرة عن الحالة الشعورية لموقف الرفض التي اندمجت الذات في التجربة اندماجاً يتضح فيها انفصاله عن القبيلة التي يسعى لـ"توحيد هويته بهوية القبيلة، ولقيمة وأسلوب حياته بقيمتها وأسلوب حياتها" (٢١) لكنها خذلته حين تخلت عن دورها في حماية أفرادها مما عمق في نفسه نزعة الرفض لسنن التحول التي طرأت في تلك المثل القبلية نتاج العامل الديني الذي غير كثيراً من المفاهيم التي كانت سائدة في عرف القبيلة والمجتمع . ولعل الرفض من أبرز سمات خطابه الشعري حين يقترن بموقف ايديولوجي و يقينية واضحة بوجود حق لا بد من تصويره والتعبير عنه مقترناً بإحساس الشاعر بأنه على حق بصورة ما، وفي مجال ما (٢٢) .

فقد أبرز الشاعر الانفصال من خلال الصياغة اللغوية لألفاظه إذ حملها بدلالات موحية تبلورت في خطابه عند رؤيته من

نلمح بوجود علاقة جدلية بين الشاعر والآخر/القبيلة التي رمز لها بأسلوب ضمني يخفي وراء المعنى الحقيقي أي ما يعرف بمعنى المعنى، إذ أنتج الخطاب الشعري بؤرة دلالية في صورة متكاملة لعالم الباطن المتوتر والتي تشير إلى تمزق ذات/الشاعر أثر افتقاده لروح الانتماء إلى قلبه وهو يعيش مرارة الانفصال عن المجتمع وما نجم عن هذا الانفصال من الشعور بالضيق والحيرة والتهيب وفقدان حس التواصل بينه وبين الآخر/القبيلة وهذا مما يعمق حدة الصراع والتوتر في نفسه فـ "الذات وجدت نفسها زاخرة بضروب من الصراع لا يحسن التغلب عليها إلا في ميدان التعبير الفني" (٢٣) .

فكان الشعر نتاج تجربة مر بها الشاعر فهو مرتبط بزمانين الماضي والحاضر، ففي بنية النص الشعري يمثل الزمن الداخلي الشعوري المهيم على هيكلية النص حين يركز الشاعر على نقطة التحول بين ماضيه وحاضره (صرمت زنبقة/ولقد حرصت/قطعت الصرم) ويقابلها (جذبي حبالك) ومن خلال استنطاق الدوال التي داخل النص نستشف ثنائية (الانتماء/الانفصال) الانفصال تحقق عندما تقطعت الروابط التي تربطه بقبيلته حين أحجمت عن دورها في أن تثار لأخيه مالك، لذا حلت القطيعة في البنية القبلية محل الانتماء لها وبذلك يتصاعد "دور الانا الشاعرة في تصوير ثنائية الصراع مع الآخر" (٢٤) القبيلة، فالشاعر ينقل واقعية الصراع بينه وبين قبيلته

بسواها . . . فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة فيكشف عن اهتمام المتكلم^(٢٣) بها وهو خصم رفضه وتوتره مع الآخر/القبيلة، فالأبيات مشحونة برموز ودلالات حملت بعداً دلاليّاً يتناسب والحالة الانفعالية للشاعر الذي يعاني أزمة وتكمن فاعلية الطباق في قوله: (بوصل/أقطع) وحدة من وحدات الرفض التي عبرت عن مواقف الشاعر الثائرة والرافضة للمتغيرات القبيلية التي يراها كمعطى سلبي وفق رؤيته^(٢٤) التي يتمحور حولها انفصام علاقته بالقبيلة . ومن خلال اتباع هذه الأساليب يعبر الشاعر عن قدرته مغادرة ذلك الواقع الأليم مستنجداً بناقة قوية صلبة:

فدن تظيف به النبيط مرفعُ

الشاعر أن يضيء من خلالها جوانب ذاته^(٢٥) نحو وجهة الاطمئنان وللتخلص من مواجد القلق والتوتر وتجاوز نزعة الأسى الناتجة عن صراعه مع الآخر/القبيلة .

ويلجأ الشاعر إلى أسلوب رمزي آخر يصور فيه حدة

توتره وسخطه لما لاقاه من ظلم الآخرين، قائلاً^(٢٦):

جاءت إلي على ثلاث تمنعُ

زاوية التغيير الحاصل، فعبّر أسلوب النداء بـ (يا) لنداء البعيد في قوله: (جذي حبالك يا زينب . . .) وكان هناك بعداً مكانياً يفصله عن قبيلته فنادها بمنزلة المنادى البعيد، فضلاً عن استخدامه للفعل الذي يوحي بانقطاع الصلة بينه وبينهم (ولقد قطعت الصرم . . .).

إن الدلالة السيكولوجية العميقة للنص تتجلى من خلال البنية الاسلوبية التي اعتمدها الخطاب باستخدام صيغ التكرار في قوله: (لقد حرصت/لقد قطعت/حبل من/حبل الخلي . . .) للكشف عن بؤرة المركز في النص الذي في "حقيقته إلحاح جهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته

بمنجدة عنس كأن سراتها

لم يجد الشاعر بديلاً يخفف عنه سوى تلك الرحلة المتخيلة فانطلق يقتحم لجج الصحراء العاتية، لتكون خير سبيل، لمواجهة ذلك الواقع المرير عند الإحساس بانقطاع حس التواصل والديمومة بينه وبين القبيلة، وعلى وفق ذلك تنصوي رؤية الشاعر ونظرتَه للرحلة رمز لكفاحه "ضد كل المغالطات التي لا تتسجم مع موقفه ورؤيته، فالرحلة هي بحث عن آفاق جديدة يحاول فيها

يا لهف من عرفاء ذات فليلية

أ.م.د. حسن صالح و افراح موفق: رفض التحولات القبلية في . . .

ظلت تراصدني وتنظر حولها
وتظل تنشطني وتلحم أجربا
لو كان سيفي باليمين ضربتها
ويربها رمق وإنني مطمئع
وسط العرين وليس حي يدفع
عني ولم أوكل وجني الاضيع

واحد، فالسلطة سلبته أخاه (سيفه) والقبيلة سلبته حقوقه عندما
تخلت عن الأخذ بثأر أخيه.

إن إحساس الشاعر بالاغتراب عن قبيلته قد تعمق
بسبب الأحداث الجديدة وما فرضه الإسلام من قيم وأعراف لم
يستطع التوافق معها مما حدا به رفضها ولا سيما حين تقاعست
القبيلة عن المطالبة بدم أخيه الذي قتل وهو مرتد فعزّ عليه أن
تقف القبيلة مكوفة الأيدي ازاء هذا المصاب ناسياً قوة الإسلام
التي لا يمكن لقبيلة مثل قبيلته أن تواجهها^(٢٧)، إن عدم استطاعة
الشاعر تجاوز ما اعتاد عليه في الحياة الماضية جعله يرفض الواقع
الجديد بما فيه من مستجدات على صعيد الحياة الاجتماعية
التمثلة بقيم ومفاهيم القبيلة وهذا ما جعله يهاجم قبيلته بقصائده
التي يظهر فيها مدى تأثره بمقتل أخيه الذي كان مرتداً، بمعنى أن
الشاعر لا يزال يريزح تحت وطأة ومؤثرات الحياة السابقة.

وترثي قبيلة بنت الحارث أخاها النضر بن الحارث

وتبكيه معبرة عن حزنها ورفضها لمقتله، فتقول^(٢٨):

يعود الشاعر مجديته عن العلاقة بينه وبين الآخر بأسلوب
مقنع حين يصور نفسه وسط عرين ضبعة عرجاء تهاجمه بعد أن
تأكدت من ضعفه وعجزه، وتبدأ بإطعام جرانها من لحمه وهو لا
يستطيع الدفاع عن نفسه؛ إذ فقد سيفه وليس هناك من يدافع
عنه، فالضبعة قامت بمهاجمته هو، وتحيل الشاعر لهذا الموقف لا
يعني أنه مصاب بمرض ذهاني بل أنه عبر بأسلوب رمزي عن شعوره
بالاغتراب عن القبيلة، أصبح مطمئعاً للضبع/الآخرين الذين يرمز
إليهم بأسلوب إيحائي لا ينتظر منهم سوى الاعتداء والجور بعد أن
لان جانبه؛ إذ انفصمت علاقته بالقبيلة فلا حي (قبيلة) يدفع عنه
الضير وأذى الآخرين الذي لن يتوقف كما يوحي بذلك الفعل (تظل)
الذي يحمل دلالة الاستمرارية، ولم يكن عجز الشاعر ناتجاً عن
أقضاع العلاقة بالقبيلة فقط؛ إذ إن هناك إشارة إلى من سلبه سيفه
ولكنه صمت عن ذكره؛ إذن الشاعر في وضع لا يشجع على
الاصطدام بالسلطة التي قتلت أخاه فعانى من استلابين في وقت

يا راكباً إن الأثيل^(٢٩) مظنة
أبلغ بها ميتاً بأن تحيةً
مني إليك وعبرةً مسفوحةً
هل سمعني النضر إن ناديتُهُ
أحمد يا خير ضنءٍ كريمٍ
ما كان ضرّك لو مننتَ وربما
أو كنت قابل فديةٍ فلينفقنُ
فالنضر أقرب من أسرت قرابةً
ظلت سيوف بني أبيه تنوشهُ
صبراً يُقَاد إلى المنية متعباً

من صبح خامسةٍ وأنت موفقٌ
ما إن تزال بها النجائب تخفقُ
جادت بواكفها وأخرى تخفقُ
أم كيف يسمع ميتٌ لا ينطقُ
في قومها والفحلُ فحلٌ لا ينطقُ
من الفتى وهو المغيضُ الخفقُ
بأعز ما يغلوبه ما ينفقُ
وأحقهم إن كان عتق يُعتقُ
لله أرحامٌ هناك تُشفقُ
رسف المقيد وهو عانٍ مؤثقُ

يتوافق مع غايتها، فيما تسبب هذا "الشعور بافتقار العلاقات ذات المعنى مع الآخرين والإحساس بالنعاسة بسبب هذا الافتقاد"^(٣٠).

وتدور أحداث النص في خضم السياق تنازعه ثنائيتان: ثنائية الممكن (أنت موفق/ربما من الفتى/قابل فدية/ينفعن/يعتق) فنلاحظ فيها اشتراك دلالة المستحيل والبعد واليأس (أبلغ بها ميتاً/كيف يسمع ميتاً) وثنائية الفعل المتحقق (تخفق/جادت/تخفق/تنوشهُ/تشفق) الذي نلاحظ فيه اختصاص

تمظهر في سياق النص نزعة الرفض في مرثاة قبيلة لأخيها النضر بمشاعر حزينة يحالطها الحقد والكراهية لمن تسبب بمقتل أخيها، إذ لا يتغيب عن هذه المرثاة الحملة بدلالات الشحنة الثورية ضد العقيدة الإسلامية وضد شخص الرسول محمد (ﷺ) الذي تجده وفق رؤيتها قد تجاوز لسنن القبيلة التي تقضي عليه بأن يعفو ويصفح عن النضر لصلة القرابة بينهما، وأمام هذا التحول القبلي الحاصل أبدت الشاعرة رفضها له وإنكاره في الوقت ذاته بما لا

محمد (ﷺ) من خلال الفعل الماضي وأداة الشرط (لو مننت/ قابل فدية) فالممكن لم يتحقق في الإعفاء عن الضرر وتحقق المستحيل على يد الرسول محمد (ﷺ) من خلال مقدرته في التصرف، وذلك بتحويل الفعل المفرح للشاعرة غير المضر بالرسول محمد (ﷺ) أي فعل تحقق فيه حزن الشاعرة واتصار الرسول محمد (ﷺ)، فهي تناشد النبي (ﷺ) بأرق القول وأعذبه تعاتبه بأسلوب مؤثر لإثارة عطفه وشفقته على أخيها الذي وقع أسيراً بأيدي المسلمين في معركة بدر أثناء مشاركته المشركين في قتالهم، وتعدت الشاعرة في عتابها الموجه للرسول محمد (ﷺ) أن تؤكد على مكاتبه وتعظيم شأنه وكرم أصله الذي يتنافى مع هذا الفعل:

في قومها والفحل فحل معرف

الشاعرة لمتزج مع رؤيتها لذلك التحول عبر المنطوق الرمزي^(٣٥) المتمثل في هيكلية النص الشعري بدءاً من المطلع في قولها: (يا راكبا إن الأثيل . . .) الذي يستطيع السفر عبر الأمكنة والأزمنة أرادت الشاعرة أن تفصح عن تأييدها لأشراف قريش (صبح خامسة) على ظهر النياق (النجائب) لما كانت عليه قريش من السيادة قبل مجيء الإسلام وبعده الذي دلت عليه لفظة (ميتاً) وجاءت نكرة لا تخص شخصاً معيناً كما إنها مرتبطة بالموضع (الأثيل) الذي خسرت فيه قريش سيادتها وهي تعلن بالطريقة نفسها عن شعورها

هذه الأفعال بالشاعرة وما تعانیه لذا تلجأ لصيغة الاستفهام (هل يسمعي الضر إن ناديت . . .) على الرغم من كونه ظاهرة لغوية إلا أنه يتحول إلى ظاهرة انفعالية وجدانية تكشف عن إحساس الشاعرة بالمرارة والأسى الذي تعانیه وتحس به؛ إذ تبين أن دلالة التركيب تعبر عن أملها في أن يستجيب لندائها ويحيب على سؤالها^(٣٦) حاملاً معه إحساس الشاعرة بالعجز المطلق عن الفعل، وهو تحسر يبنني نصياً وتأويلياً بشكل تقابلي: التمني الظاهر تعبيراً وأداة مقابل التحسر الضمني العميق على ما جرى، يركز التأويل التقابلي على توليد المعاني الموجبة لخلق تفاعلات نفسية وتجاوب فعال^(٣٧) مع قضيتها، وتوجه الشاعرة الخطاب إلى شخص النبي

أحمد يا خير ضنء كريمة

ولم يأتي التوكيد في النص بلفظة الفحل مرتين اعتباراً أما زيادة في لومها وعتابها لـ "تؤكد كل شيء تراه بحاجة إلى التوكيد، فهي قد تؤكد الحكم كله أو جزءاً منه، وقد تؤكد لفظة بعينها"^(٣٨) لتحقيق مبتغاها وإيصال فكرتها إلى الآخر.

لذلك امتزج شعوران حادان في نفسية الشاعرة (الحزن/الحقد) فأفرغتهما في هذه المرثية عن طريق اللغة التعبيرية المرتبطة بالفكر الذي صار جزءاً داخلياً^(٣٩) يفصح عن تدمير الشاعرة ورفضها بطريقة إيحائية تعبر عن المكبوتات في نفس

والرحم، إذ انعكس أثر الدين الإسلامي الجديد على التحولات
كتحولات اجتماعية .

المزدوج (الحزن/الحقد) الذي تمثل بصورة ايجابية في البيت الثالث
من خلال العبرة ذات الطبيعة المزدوجة فهي (مسفوحة جادت
بواكفها) وفي هذا دلالة على شدة الأسى الذي لا مناص ولا ضير
من اظهاره واخفائه، ولو إنها أكفّت بهذه الطبيعة إذن لارتاحت
النفس؛ لكنها في الوقت نفسه (تحنق) دلالة على الاعتصار الذي
يناسب الحقد فقد تعمدت كتمانها ودفنها في نفسها مما أمسك
بجناقها وبقى مثيراً ومحفزاً إياها على الانتقام إذ يتراءى لها كيف
إتقاد أخوها مرفقاً بأيدي المسلمين مكبلاً بقيود الأسر (صبراً يقاد
إلى المنية متعباً . . .) فهذه الصورة توحى بالذل واليأس الذي كان
يعانيه النضر مما زاد من حدة شعور قبيلة واستياءها للتحولات
القبيلة ورفضها فجاءت مقطوعتها قطعة من النواح برز فيها حس
الاعتراب عن المجتمع على أثر مقتل أخيها على يد أقاربه؛ لأنها
كانت تنطلق من مفاهيم قبيلة^(٣٦)، تبين فيها عمق ارتباط الشاعر
بقبيلتها ومحبتها لأفرادها مما جعلها تججم عن الهجاء والتنديد^(٣٧)،
إن هاجس القبيلة وروابطها لم يكن يطفو من خلال الصراع فحسب
وإنما كان يخاطب حتى حالات العتاب المتمثلة في مرتبة قبيلة لأخيها
النضر ما يلح لذلك، وتبلور رؤيتها الرفضية للتحولات القبيلة في
انحلال أوامر وصلات القربى، لتحل آصرة الدين محل آصرة الدم

أ.م.د. حسن صالح و افراح موفق: رفض التحولات القبلية في . . .

الخاتمة

تطالب القبيلة بثأر بعض افرادها، كما هو الحال عند متمم بن نيرة .

وكان رفض الشعراء المتحدث عنهم رفضاً لا يحمل سمة المباشرة والتقريبية، بل جاء بلغة ايجائية طغت عليها الرموز والاشارات المخفية، مما أضفى على المنجز الشعري ابعاداً جمالية وثناءً دلالية .

من خلال دراستنا لمقاربة التحولات القبلية توصلنا إلى أن المعطيات الاسلامية غيرت نحو الأحسن كثيراً من المفاهيم السائدة لدى المنظومة الثقافية القبلية، ولكن هذا التغيير لم يرق لقسم من شعراء ذلك العصر كون القبائل تخلت عن حمايتهم بسبب معارضتهم للاسلام، كما هو الحال عند كعب بن زهير، أو لم

- (١) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية، د. جميل صليبا: ٦١٨.
- (٢) ينظر: شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام حتى سنة ٢٣هـ، د. ايهم عباس القيسي: ٥٤.
- (٣) ينظر: شعر الاغتراب في الأدب العربي، ماهر حسن فهمي، مجلة مجمع اللغة العربية، ع٢٥، س ١٩٦٩: ١٣٤.
- (٤) ينظر: الانتماء في الشعر الجاهلي، د. فاروق احمد سليم: ١٥.
- (٥) القلق والاعتراب في الشعر الجاهلي، د. عمر الطالب: ١٩٩.
- (٦) ينظر: الشعراء وتجربة الشعر، د. عبد الجبار المطلبي: ١٧.
- (٧) ينظر: عزف على وتر النص الشعري دراسة في تحليل النصوص الأدبية، د. عمر الطالب: ٩٠.
- (٨) شرح ديوان كعب بن زهير: ٦-٩.
- (٩) بانث: فارقت، متبول: أصيب بتبل، متيم: مضلل وهو التذلل، مكبول: محتبس عندها، الأغن: الذي في صوته غنة، غضيض الطرف: فاطر الطرف، العوارض: الأسنان، شحبت: عوليت بالماء ومُزجت، بذي شيم: بماء ذي برد، محنية: ما انحنى من الوادي فيه رمل وحصى صغاراً، أفرطه: ملأه، سارية: سحابة تسرى فتمطر بالليل، يعاليل: ملأت مواضع الماء في الأبطح، سيط: خليط، الفجع: المصيبة، الولع: الكذب.
- (١٠) ينظر: الرمز في قصيدة (بانث سعاد) قراءة في الدلالة النفسية: رائد فؤاد الرديني، مجلة آداب الرافيدين، ع٩٤، س ٢٠٠٨: ٤٠٥-٤٠٧.
- (١١) ينظر: دراسات في النص الشعري عصر صدر الإسلام وبنو أمية، د. عبده بدوي: ٤٨-٤٩.
- (١٢) شرح ديوان كعب بن زهير: ٩-١٨.
- (١٣) ينظر: قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري، د. محمود عبد الله الجادر: ٢٣٢/٢٣٥.
- (١٤) ينظر: عزف على وتر النص الشعري دراسة في تحليل النصوص الأدبية: ٨٤-٨٧.
- (١٥) شرح ديوان كعب بن زهير: ٩.
- (١٦) الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور، د. شوقي ضيف: ٢١.
- (١٧) ينظر: ظواهر من التمرد في نماذج من شعر العصر العباسي الأول، د. صالح علي الشيتوي، مجلة جامعة دمشق، مج ٢٠، ع ٢+١، س ٢٠٠٨: ١١١.
- (١٨) مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي، د. ابتسام مرهون الصفار: ٩٣-٩٤.
- (١٩) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، د. مصطفى سوييف: ١٢٤.
- (٢٠) التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، د. أحمد ياسين السليمانى: ١٥٤.
- (٢١) الرؤى المقنعة نحو منهج بنوي في دراسة الشعر الجاهلي، د. كمال أبو ديب: ٧١.
- (٢٢) ينظر: الإنسان المتمرد، ألبير كامو: ١٨.
- (٢٣) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة: ٢٤٢.
- (٢٤) ينظر: جماليات الرقص في الشعر العربي مقارنة تأويلية في شعر أبي تمام، د. سالم محمد ذنون: ٤٢٤.
- (٢٥) قراءة النص الشعري الجاهلي، د. موسى ربابعة: ٨٧.
- (٢٦) مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي: ٩٩.
- (٢٧) ينظر: الاغتراب الاجتماعي في شعر صدر الإسلام، حسن صالح سلطان، رسالة ماجستير: ٣٩، ٤٢.
- (٢٨) السيرة النبوية، لابن هشام: ٤٥/٣.

- (٢٩) الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء، مظنة: أي موضع ابقاع الظن، النجائب: الابل الكرام، الواكف، السائل، الضن: الأصل، المعرق: الكريم، المحنق، الشديد الغيظ، تنوشة: تناولها، تشقق: تقطع، رسف: المشي الثقيل.
(٣٠) الاغتراب، ريتشارد شاخ: ٢١٥.
(٣١) ينظر: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، د.محمود عكاشة: ٥١.
(٣٢) ينظر: تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، محمد بازي: ٧٦-٨٠.
(٣٣) معاني النحو، د.فاضل صالح السامرائي: ٤-٥٠٩.
(٣٤) ينظر: في حداثه النص الشعري (دراسة فنية)، علي جعفر العلاق: ٢٨.
(٣٥) ينظر: التكتيف الرمزي وجماليات السرد في (شواهد الأشياء) دراسة سيميائية، محمد طالب الأسدي، مجلة الأقلام، ع٦، س ٢٠٠٨: ٥٩.
(٣٦) ينظر: معاتبه النبي محمد (ﷺ): علي كمال الدين الفهادي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع١٣، ص ١٩٩٦: ١٨.
(٣٧) ينظر: الظاهرة الأدبية في عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، إحسان سركريس: ٩٠.

المصادر:

- ❖ الاسس النفسية للأبداع الفني في الشعر خاصة: د. مصطفى سوييف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط ٤، د.ت.
- ❖ الاغتراب: ريتشارد شاخ: ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية العليا، بيروت، ط ١، ١٩٨٠م.
- ❖ الانتماء في الشعر الجاهلي: د. فاروق احمد سليم، اتحاد الادباء العرب، دمشق- سوريا، د. ط ١، ١٩٩٨م.
- ❖ الانسان المتمرد: البيركامو، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت، ط ١، ١٩٧٥م.
- ❖ التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر: د. احمد ياسين السليمانى، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ٢٠٠٩م.
- ❖ التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: د. محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، مصر، ط ١، ٢٠٠٥م.
- ❖ تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي: محمد بازي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م.
- ❖ جماليات الرفض في الشعر العربي مقارنة تأويلية في شعر أبي تمام: د. سامي محمد ذنون، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط ١، ٢٠١٥م.
- ❖ دراسات في النص الشعري عصر صدر الاسلام وبني أمية: د. عبده بدوي، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط ١، ١٩٨٧م.

- ❖ الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (البنية والرؤيا): د. كمال ابو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب- مصر، د. ط، ١٩٨٦م.
- ❖ السيرة النبوية: ابو محمد عبد الملك بن هشام بن ايوب الحميري (٢١٣هـ) تحقيق وشرح مصطفى السقا و ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، دار الكتب المصرية، د. ط، ١٩٣٦م.
- ❖ شرح ديوان كعب بن زهير صنعهُ الامام ابي سعيد الحسن بن عبيد الله السكري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر، ١٩٥٠م.
- ❖ شعر العقيدة في عصر صدر الاسلام حتى سنة ٢٣هـ: الدكتور أيهم القيسي، عالم الكتب مكتبة النهضة العربية، د. م. ، ط١، ١٩٨٦.
- ❖ الشعر وتجربة الشعر: د. عبد الجبار المطلي، مطبعة المعارف، بغداد، د. ط، ١٩٧٣.
- ❖ الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د. ط، ١٩٧٩م.
- ❖ الظاهرة الادبية في عصر صور الاسلام والدولة الأموية: احسان مركيس، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- ❖ عزف على وتر النص الشعري (دراسة في تحليل النصوص الأدبية الشعرية): د. عمر محمد الطالب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، د. ط، ٢٠٠٠م.
- ❖ في حداثة النص الشعري (دراسة فنية): علي جعفر العلاف دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.
- ❖ قراءة النص الشعري الجاهلي: د. موسى ربابة، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، الاردن د. ط، ١٩٨٨م.
- ❖ قراءة معاصرة في نصوص في التراث الشعري: د. محمود عبدالله الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، د. ط، ١٩٧٠م.
- ❖ قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٤م.
- ❖ القلق والاعتراب في الشعر الجاهلي: د. عمر محمد الطالب، دار عكاظ، المغرب، د. ط، ١٩٩٨م.
- ❖ مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي: د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة الارشاد، بغداد، د. ط، ١٩٦٨م.

- ❖ معاني النمو: فاضل صاع السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ط٢، ٢٠٠٣م.
- ❖ المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية: د. جميل صليبا، الدار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧١م.
- ❖ ممالك الرفض في الشعر العربي مقارنة تأويلية في شعر ابي تمام: د. سالم محمد ذنون العكيدي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٥م.

البحوث المنشورة في الدوريات:

- ❖ التكثيف الرمزي وجماليات السرد في (شواهد الاشياء) دراسة سيميائية: محمد طالب الاسدي، مجلة الافلام، العدد٦، ٢٠٠٨م.
- ❖ الرمز في قصيدة (بانة سعاد) قراءة الدلالة النفسية: رائد فؤاد الرديني، مجلة آداب الرفادين، العدد٤٩، ٢٠٠٨م.
- ❖ شعر الاغتراب في الادب العربي: ماهر حسن فهمي، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد٢٥، ١٩٦٩م.
- ❖ ظواهر في التمرد في نماذج من شعر العصر العباسي الاول: د. صالح علي الشتوي، مجلة جامعة دمشق، المجلد٢٠، العدد٢٠١، ٢٠٠٤م.
- ❖ معاناة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) : علي كمال الدين الفهادي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد٣١، ١٩٩٩م.

رسائل الماجستير

- ❖ الاغتراب الاجتماعي في شعر صدر الاسلام: حسن صالح سلطان، رسالة ماجستير، كلية التربية- جامعة الموصل، اشرف د. عمر محمد الطالب، ٢٠٠٠م.